من تاريخ الطب الاسلامى

لصاحب السعادة الدكتور قاسم غنى

سفير إيران بمصر

— ٤ —

ذكرنا فى حديثنا السابق مجملا عن طب العرب فى الجاهلية ، ونبذة عن مصادر الطب الإسلامى وتأثير علوم اليونان فيه ، وتحدثنا عن كيفية نقل علوم اليونان وسائر الأمم إلى العربية ، وذكرنا أن المسلمين بدأوا ترجمة العلوم منذ القرن الأول الهجرى أى من بدء تعرفهم على الأمم الأخرى واتصالهم بها ، وقلنا إن هذه التراجم قد تحسنت بالتدريج واتسعت دائرتها حتى بلغت ذروتها فى زمن المأمون ، وكان الايرانيين حينذاك نفوذ كبير فى المجتمع الإسلامى ، أى عندما كانت النهضة العلمية الإسلامية فى أوجها ، وإن عدداً كبيراً من مترجمى هذا العصر قام بإصلاح التراجم السابقة .

وفى حديثنا اليوم سنتكلم بإيجاز عن هذا العصر ثم نتحدث عن ظهور كبار الأطباء المسلمين من أصحاب الرأى والنظر وعن مطالعاتهم ودراساتهم فى الأمراض والعلل وعلاجها ، وفى مطالعاتهم عن أحوال المريض بجانب سريره ، ونذكر نبذة عن البيمارستانات عند المسلمين .

كان المأمون مهتما بهذا الأمر لدرجة أنه كان يبعث الهدايا الثمينة لملوك الروم ويسألهم مقابل ذلك الإذن فى إنفاذ بعض المختار من كتب الفلسفة والعلوم القديمة المخزونة المدخرة لديهم إليه ، وكان من جملة شروط الصلح بين الخلافة الإسلامية ، وامبراطورية روما الشرقية ، أن يأذن امبراطور الروم للمسلمين بشراء الكتب العلمية اليونانية من البلاد التابعة له ، وكانت الكتب التى تصل إلى المأمون خير الهدايا التى يبعث بها إليه الملوك .

يقول ويتينجتون wittington فى مؤلفه عن تاريخ الطب :

« إن فتوح المسلمين العلمية ليست بأقل أهمية من فتوحهم للبلاد وغزوهم لها » (١)

(١) Browne , Arabian Midicine

وقد اقتدى بالمأمون كثير من السراة الأغنياء من أهل الفضل والذوق وبذلوا جهوداً كبيرة فى ترجمة الكتب العلمية ونقلها إلى العربية .

وكان من نتائج هذا الاهتمام والتشجيع أن ظهر عدد كبير من مهرة النقلة فى ذلك العصر .

يذكر المؤرخون أن المأمون كان يعطى حنين بن اسحق العبادى ما يعادل وزن الكتب التى يقوم بنقلها إلى العربية ذهباً

وكان يشتغل فى دار الترجمة التى كان يرأسها حنين أكثر من تسعين مترجماً ينقل الكتب ، ومن مشاهيرهم ابن أخته حبيش الأعسم ، وعيسى بن على ، وعلى بن يحيى ، وأيوب الأبرش ، وحجاج بن مطران .

وبفضل جهود هؤلاء وعلو هممهم وبصرف الأموال الكثيرة وتحرى الدقة المتناهية نقلت إلى العربية كتب كثيرة نفيسة حقاً نجد فى كثير من كتب التاريخ ، ولا سيما فى كتاب الفهرست لابن النديم ، أسماءها وعناوينها بالتفصيل . غير أن كثيراً من هذه الكتب قد ضاع بسبب ما أصاب القسم الأكبر من البلاد الإسلامية فى القرن السابع للهجرة من الخسائر نتيجة لحملة المغول عليها . وليس لدينا الآن من آلاف الكتب غير أسمائها ؛ وربما كان هناك كتب كثيرة ضاعت وضاعت معها أسماؤها أيضاً

وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن شيوع عقيدة الأشاعرة الجامدة الشديدة التحفظ ، وتغلبها على طريقة المعتزلة الحرة فى البحث العلمى والدينى ، وعوامل كثيرة أخرى كانت قد أثرت فى النهضة العلمية الإسلامية لحدت من تقدمها قبل حملة المغول ، إلا أن هذه النهضة العلمية كانت لا تزال بعد على شىء من القوة ، وكان مقام العلم والأدب لا يزال شامخاً إلى أن جاءت حملة المغول كالسيل الجارف فأصابتها بصدمة قوية فلم تقم لها بعد ذلك قائمة .

إلا أن حملة المغول هذه لم تصب العلوم الطبية بما أصابت به غيرها من العلوم من ضرر ، لأن أفراد قبائل المغول على رغم بربريتها كانوا يهتمون بصحتهم وسلامة أبدانهم ، لذلك فقد حفظوا كتب الطب من الإضمحلال والضياع ، كما أن حبهم الشديد للشهرة وخلود الذكر كان من الأسباب التى صانت كتب التاريخ من الضياع والفناء .

إن هذه العاطفة أعنى حبهم للشهرة وخلود الذكر لم تصن كتب التاريخ من الضياع فحسب ، بل كانت سبباً لتأليف كتب

أخرى نفيسة فى هذا الباب ، مثل تاريخ جهانكشاى للجوينى ، وجامع التواريخ لرشيد الدين بن فضل الله الحمدانى ، وتاريخ الوصاف لفضل الله الشيرازى ، وتاريخ كزيده لحمد الله المستوفى القزوينى ، وهى كلها معتبرة من الآثار والمؤلفات التاريخية الخالدة

والخلاصة أن أكثر المؤلفات التى نقلت فى عهد المأمون إلى العربية كانت تراجم متقنة تدل على دقة المترجمين وحسن قريحتهم ، وأن تبويب الكتب المترجمة إلى فصول ومقالات وأبواب مع ذكر المراجع والمصادر التى نقلت عنها التراجم تدل على ذوقهم السليم .

وبعد أن تعرف المسلمون عن طريق هذه التراجم على مصادر الطب الأصلية ، وبعد أن عم البحث العلمى وأنشئت البيمارستانات والمعاهد العلمية وتكونت حلقات الدرس — ولهذا بحث مهم خاص ليس الآن محله — بدأ دور استقلال الأطباء المسلمين فى بحثهم وتأليفهم . وفى هذا العهد الجديد شرع هؤلاء بتدوين ما فهموه من التراجم فى مؤلفات خاصة حسب ذوقهم الخاص ، وأضافوا إلى ذلك كله خلاصة مطالعاتهم وتجاربهم الشخصية فكان من نتاج ذلك كتب مستقلة فى الطب للمؤلفين المسلمين .

وكان لمسلمى إيران خدمات مهمة فى هذا الباب أيضاً لسابقتهم وماضيهم الطويل فى الطب منذ عهد الساسانيين بفضل المدارس الطبية العظيمة التى كانت فى إيران ومنها مدرسة جنديسابور . لذلك فإن كثيراً من الأطباء ذوى الرأى والنظر والأساتذة الكبار والمؤلفين المشهورين كانوا من الإيرانيين ولا سيما فى القسم الشرقى من البلاد الإسلامية .

أما الطب فى المغرب والأندلس ، فإن له بحثاً خاصاً مستقلا ؛ والكلام فى أحوال فلاسفة تلك البلاد وأطبائها كابن رشد وابن زهر وخلف بن العباس الزهراوى الشهير بجراح العرب وابن جلجل وابن وافد واسحق بن عمران وأحمد بن الجزار القيروانى وأضرابهم ، يحتاج لبحث طويل فى عدة محاضرات ؛ ولا سيما الكلام عن أثرهم فى البلاد المجاورة لأسبانيا والطلبة الذين وفدوا إلى الأندلس من سائر بلاد أوروبا للدرس والتحصيل ، والكتب العربية التى نقلوها إلى اللاتينية والعبرية وغيرها — وهذه كلها أمور ذات شأن تقتضينا أن ندرسها دراسة عميقة ، ونخصها بمحاضرة أخرى إن سمح الوقت بذلك .

كان أكبر همّ معظم العرب فى العصور الإسلامية الأولى هو درس اللغة العربية وعلوم القرآن والشريعة ، ولم يكونوا يهتمون كثيراً بسائر العلوم .

يقول جولد زيهير Gold Ziher المستشرق المعروف وهو من أكبر المستشرقين تضلعاً فى اللغة العربية ، وله اطلاع واسع على الفقه الإسلامى — إن عدد علماء العرب حتى فى علوم القرآن والشريعة كالتفسير والحديث والفقه كان أقل من عدد العلماء من غير العرب فى هذه العلوم أيضاً .

ومن الأمور التى استرعت نظر الأستاذ ادوارد براون فأشار إليها فى مؤلفه (الطب الإسلامى) إن الأطباء العرب ولا سيما المسلمين منهم لم يكونوا محل ثقة العرب واعتمادهم فى العلاج ؛ وقلما كانوا يرجعون إليهم فى ذلك . ويستشهد الأستاذ براون برواية ذكرها الجاحظ فى كتاب البخلاء عن طبيب مسلم من العرب اسمه أسد بن جانى أكسد ، فقال له قائل: « السنة وبئة والأمراض فاشية وأنت عالم ولك جد وخدمة ، ولك بيان ومعرفة ، فمن أين تأتى هذا الكساد ؟ قال أما واحدة فإنى عندهم مسلم ، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب ، بل قبل أن أخلق ، أن المسلمين لا يفلحون فى الطب . واسمى أسد ، وكان ينبغى أن يكون اسمى صليباً ومرايل وبوحنا وبيرا (ويقصد الأسماء اليونانية أو السريانية أو الآرامية) وكنيتى أبو الحارث ، وكان ينبغى أن تكون أبو عيسى وأبو زكريا وأبو إبراهيم (أى كنى اليهود أو النصارى) وعلى رداء قطن أبيض ، وكان ينبغى أن يكون رداء حرير أسود ؛ ولفظى لفظ عربى ، وكان ينبغى أن تكون لغتى لغة أهل جند يسابور (يقصد لسان أهل إيران) . والخلاصة أن معظم الأطباء الكبار من المسلمين فى عصر النهضة العلمية والاستقلال الفكرى فى الإسلام كانوا من الإيرانيين ، وكان أطباء هذه الحقبة من أصحاب الرأى والنظر ممن جازوا مرحلة التقليد والتسليم لآراء أسلافهم ؛ فإنهم كانوا يبذلون غاية الجهد ويعملون رأيهم فيميزون بين الصحيح والسقيم من الآراء ، ويضيفون إليها من عندهم الشىء الكثير ؛ وخير مثال لهؤلاء محمد بن زكريا الرازى الذى جمع فى مؤلفيه كتاب المنصورى وكتاب الحاوى كل المعارف الطبية التى كانت موجودة فى زمنه من مؤلفات من سبقه من الأطباء من يونانية وغير يونانية ، ونقدها نقداً علمياً

يدل على علو كعبه وطول باعه وإحاطته التامة ، وزاد عليها مشاهداته وتجاربه الشخصية ، كما أنه ألف كتاباً فى الحصبة والجدرى ، ولم يكن أحد من الأطباء الذين سبقوه ، قد عرف أن هذين المرضين مرضان مستقلان . وله غير هذه الكتب رسائل خاصة عن تجاربه الشخصية ومطالعاته فى البيمارستانات ، وبجانب فراش المرضى ، ورسائل أخرى فى المبادئ الخلقية التى يجب على الطبيب مراعاتها والسير بموجبها بحكم الواجب ، وفى هذه الرسائل أيضاً تتجلى اختباراته الشخصية بوضوح تام .

ومن مؤلفات الرازى كتاب باسم شكوك الرازى على كلام جالينوس فاضل الأطباء فى الكتب التى نسبت إليه ؛ ولدى نسخة خطية منه يقول فى مقدمتها :

(إنى لأعلم أن كثيراً من الناس يستجهلوننى فى تأليف هذا الكتاب ، وكثيراً منهم يلومونى ويعنفونى على مناقضة رجل مثل جالينوس فى جلاله ومعرفته وتقدمه فى جميع أجزاء الفلسفة ومكانه منها ، وأجد أنا لذلك مضضاً فى نفسى ، إذ كنت قد بليت بمقابلة من هو أعظم الخلق على منة ، وأكترهم لى منفعة ؛ به أهديت ، وإثره اقتفيت ، ومن بحره استقيت ، مما لا ينبغى أن يقابل به العبد سيده ، والتلميذ أستاذه ، والمنعم عليه ولى نعمته ، وبودى يشهد الله أن هذه الشكوك التى أنا ذاكرها فى هذا الكتاب ، لم تكن فى كتب هذا الرجل الخير الفاضل العظيم قدره ، الجليل خطره ، والعام نفعه ، الباقى فى الخير ذكره ، لكن صناعة الفلسفة لا تحتمل التسليم للرؤساء والقبول منهم ولا مساهلتهم ، وترك الاستقصاء عليهم ، ولا الفيلسوف يحب ذلك من تلاميذه والمتعلمين منه كما قد ذكر ذلك أيضاً جالينوس فى كتابه فى منافع الأعضاء حيث وبخ الذين يكلفون أتباعهم وأشياعهم القبول منهم بلا برهان . وكان أكثر ما عزانى وسهل على أن هذا الرجل الجليل لو كان حياً حاضراً لم يلمنى على تأليف هذا الكتاب ، ولم يثقل ذلك عليه إيثاراً منه للحق وحباً لتقصى الباحث . إلى أن يقول : « وأما من لامنى وجهلنى فى استخراج هذه الشكوك والكلام فيها فإنى لا أرتفع به ولا أعده فيلسوفاً إذ كان قد نبذ سنة الفلاسفة وراء ظهره ، وتمسك بسنة الرعاع من تقليد الرؤساء وترك الاعتراض عليهم .

هذا أرسطاطاليس يقول — اختلف الحق وفلاطن وكلاهما صديقان لنا ، إلا أن الحق أصدق لنا من فلاطن . وهو يقاومه ويناقضه من أجل آرائه ، فقد ناقض أرسطاطاليس فى أوضح أجزاء الفلسفة بعد الهندسة الذى هو المنطق يبين غلطه فى كثير من المواضع ، حتى أنه يتعجب ويقول : لست أدرى كيف ذهب على الحكيم هذا المعنى وهو فى غاية الوضوح !

وتذكرنا هذه المقدمة بمقدمة أخرى للشيخ الرئيس ابن سينا فى كتابه حكمة المشرقيين وفيها ينتقد فلسفة المشائين .

والذى يتبين من مطالعة هذه المقدمة أن تحولا فكرياً عظيما كان قد طرأ على ابن سينا فى أخريات أيام حياته نتيجة المطالعة والدرس ، إذ نراه يبدى آراءه دون أن يتقيد بفلسفة المشائين ، ويبينها حسب فلسفة اليونان ولو خالفت فلسفة المشائين ، أو باينت آراءه التى كان قد أبداها الشيخ نفسه حتى ذلك التاريخ .

وبما أن النمو العقلى والفكرى عند الحكماء والفلاسفة وتقدمهم فى هذا الباب يشبهان إلى حد كبير تقدم الأطباء المسلمين فى العلوم الطبية ، أعنى أن النسبة بين أطباء عصور النهضة وعهد ظهور التأليف المستقلة ، وبين مترجمى الكتب الطبية فى العصور الأولى من الإسلام هى نفس النسبة بين مترجمى المؤلفات الفلسفية فى العصور الأولى ومترجمى كتب الفلسفة فى العصور المتأخرة ، أرى أن أذكر لحضراتكم هنا هذه المقدمة القيمة .

(يتبع)

محمود الخفيف

يقـــدم

تولستوى

قمة من القمم الشوامخ فى أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه

ثمنه ٤٠ قرشاً عدا أجرة البريد